شعر فاطمة عبد الحق

من الرؤية الوجودية إلى الرؤية الإسلامية

د. جميل حمداوي - المغرب

يمكن تصنيف الشعر المغربي المعاصر إلى ثلاثة اتجاهات أدبية أساسية من حيث المضمون والرؤية للعالم منذ سنوات الستين وامتداد سنوات السبعين من القرن العشرين إلى يومنا هذا. وهي:

- الشعر اليساري الذي ينطلق من منطلقات واقعية ذات أسس مادية جدلية هيجيلية أو ماركسية أو شيوعية.
- الشعر الوجودي الذي ينطلق من فلسفة الضياع والاغتراب والعبث والانتظار واليأس، والتغني بالذات المهزومة المنكسرة.
- الشعر الإسلامي الذي يستند إلى العقيدة الإسلامية الربانية الشاملة القائمة على التوازن بين ماهو مادي وماهو روحي. ويقدم هذا الشعر حلا إسلاميا لمعالجة مشاكل الإنسان عن طريق تهذيبه روحانيا، وتنويره دينيا، والسمو به واقعيا، وذلك من خلال التمسك بنور المشكاة، وتمثل آيات الهدي القرآني، والسير على آثار القبس النبوي، والسعي نحو إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ومن أهم رواد الشعر الإسلامي بالمغرب، نذكر: حسن الأمراني رائد هذا الشعر بدون منازع، ومحمد علي الرباوي، ومحمد بن عمارة، وعبد الرحمن عبد الواحد... وتذكر من الشواعر: أم سلمى، وفاطمة عبد الحق التي انطلقت في مسيرتها الشعرية من الرؤية الوجودية إبان مرحلة المراهقة والشباب إلى الرؤية الإسلامية مع مرحلة النضج والاكتمال الأنثوي، والوعي الجامعي، وممارسة الحياة الواقعية كما يدل على ذلك ديواناها الشعريان، وهما: زمن الانتظار، وصهيل الحروف المهزومة...

الرؤية الإسلامية في ديوان «صهيل الحروف المهزومة»[1]

تنتقل مع الشاعرة فاطمة عبد الحق في ديوان «صهيل الحروف المهزومة» من رؤية وجودية عابثة نجدها في ديوانها الأول «زمن الانتظار» إلى رؤية إسلامية ملتزمة قوامها التمثل بفلسفة النضال والكفاح، والدفاع عن القضية الإنسانية، والإيمان بالعقيدة الربانية. ومن ثم، فالشعر لدى فاطمة عبدالحق ليس أداة للعربدة والحب والمجون، بل هو سلاح من أجل إحقاق الحق، وإبطال الباطل[2]:

شاعر حب أنت
شاعر الماء والخضرة
شاعر الأحلام الوردية
تقول شعرا في الحب
أقول في الحرب
تقول في الهوى
أقول في القضية
إن كان شعرك قرين الأوهام
فشعري توأم للبندقية
إن كان شعرك عصارة الحب الفيسي
فشعري عصارة الدماء الزكية
ساكتب شعرا للطفولة
وأكتب الحروف الأبجدية
ولن أكون جميلا وقيسا
لأني حضنت السكين
وعزفت لحن المقصلة.

وهكذا، تستلهم المبدعة في هذه الأسطر الشعرية الخطاب الديني تماما. وذلك من خلال استحضار سورة الشعراء التي تحصر وظيفة الشعر في تمثل الإيمان النابع من الذات صدقا وإحساسا، والقيام بالعمل الصالح، وقول الصدق والحقيقة، والابتعاد عن الكذب والمبالغة والتمويه الباطل، وتجنب العبث الماجن. وفي هذا الصدد، يقول الله عز وجل متحدثا عن الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۝﴾ (الشعراء).

وتثور الشاعرة على واقعها المتردي ومحيطها المنحط، وتتمرد عن ذاتها المستسلمة، مستشرفة واقعا أفضل وأسمى، يطغى فيه الكيف على الكم، وتتوازن فيه الرغبات، وينتشر فيه العدل والفضيلة، ويتحقق فيه الإيمان والحق الصادق. لذلك، تستنجد الشاعرة بالفاروق عمر بن الخطاب شخصية بطولية.

تقول الشاعرة في قصيدتها رسالة مفتوحة إلى الفاروق[3]:

فيا أيها الفاروق
هلا رجعت
لتحق الحق
تجتاح وجه الليل
، متى استعبدتم الناس،
إنا اخترناها
صراطا
ودينا
يانور الله
متى تأتي؟
ياعدل الله
متى تأتي؟
أيا روح الله
إنا ابتلينا...

من خلال هذا المقطع، تلح الشاعرة على النهج الإسلامي بديلا لمشكلاتنا المستعصية. فعمر ابن الخطاب ليس سوى رمز ديني يمثل الإسلام الذي رفع الإنسان قيمة ومكانة، وكرمه أيما تكريم، ودافع عن حريته، وحرم استعباده بأي وجه من الوجوه. ويصبح عمر بطلا دينيا ومنقذا ضروريا لبشر هذا الزمان.

وتدل القصيدة في جوهرها على انعدام القيم الإنسانية، وانحطاط الفضائل الأخلاقية، وذلك لكثرة الظلم والجور والضلال الديني والروحاني في المجتمعات المعاصرة. وتستحضر الشاعرة كذلك ثنائية قابيل وهابيل لتجسد صراع الخير مع الشر والحق مع الباطل.

كما تندد الشاعرة بواقعها الذي يتخره الفساد وكبرياء الطواغيت.

ولا ترى من مسلك لإنقاذه سوى الارتماء في أحضان الذات الروحية والذات الربانية[٣].

يا... يازمان السلم
ياعصر الخطايا
والجور المستمر
خطيئتان
ثم كتاب العمر
بالدم سطر.
يارب
من ينقذ ذا الإنسان
من بحر الدم
من الهوان
إذ هو في غياهب الكون
سدر.
من ينقذ ذا الإنسان
إذ أخو الإنسان
بالحق كفر...

تنطلق الشاعرة في ديوانها «سهيل الحروف المهزومة» الذي يجسد الهزيمة والتردي وانهيار القيم العادلة، من كيانها الذاتي الذي اختار الثورة والكفاح والتمرد، والدفاع عن القضية الإسلامية إلى ماهو محلي ووطني، وصولا إلى ماهو قومي، وذلك من خلال تصوير القضية الفلسطينية في صورة محمد الدرة في قصيدتها (درة الأقصى)، وتجسيد الجرح العربي في قصيدتها (الجرح العربي).

إذاً، لقد اختارت الشاعرة في ديوانها الجديد الانطلاق من الرؤية الإسلامية للتعبير عن همومها الذاتية والوطنية والقومية من خلال مزج عدة أشكال وقوالب إيقاعية: القصيدة الخليلية، وشعر التفعيلة، والشعر المتناثر، والنشيد (الجرح العربي).

واستعانت الشاعرة المبدعة بالنص الغائب الديني لتشكيل رؤيتها الإنسانية والعقدية، التي تتمثل أيضا بكل وضوح في المعجم الذي يمتح ألفاظه من القرآن والسنة النبوية، ومن التاريخ والواقع الإنساني. وهنا، يتجلى مدى التزام الشاعرة بنقل واقعها وهمومها الذاتية بكل صدق وموضوعية، من خلال الدفاع عن شعر القضية بدلا من شعر الحب والهوى والمجون.

وخلاصة القول: لقد انتقلت الشاعرة المغربية فاطمة عبد الحق من رؤية شعرية وجودية عابثة إلى رؤية شعرية دينية إسلامية قوامها: الالتزام بمبدأ الإسلامية، والدفاع عن الحق، وبناء الإنسان الفاضل، فضلا عن تنقية معجمها الشعري دينيا، والابتعاد عن الغموض والإبهام في استخدام الصور، واللجوء إلى تشكيل صور شعرية واضحة هذبتها الصياغة الدينية، والاقتراب من صدق الواقع والذات. كما استندت الشاعرة إلى تضمين الخطاب الديني في ديوانها عبر آليات تناصية تتمثل في المستنسخات النصية والمقتبسات والإحالات والتعابير الدينية المسكوكة. كما يؤشر الديوان على التوفيق بين طريقتين في الكتابة الشعرية الإسلامية المعاصرة: طريقة التجريب، وطريقة التأصيل في تجويد الإبداع الأدبي ■

الهوامش:

(١) فاطمة عبد الحق: سهيل الحروف المهزومة، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.
(٢) المصدر السابق، ص: ١٠-١١.
(٣) فاطمة عبد الحق: المصدر السابق، ص: ١٤.
(٤) المصدر السابق، ص: ٣٨-٣٩.